غربة...

1

... حين كان يسرح مع الأغنام.. كان (طاهر) يجلس على صخرة.. يدندن بإحدى الغناوي.. في فواصل الغنّاوة يقوم بإلقاء الحجارة لردّ الشياه.. يصرخ عليها أحياناً.. تتوارى أخته خلف شجرة البطّوم وهي تبتسم حتى يتم أغنيته: (عزيز هو دواي وداي ... ومشكاي وطبيبي وعلّتي).. ثم تتنحنح.. تنادي عليه من بعيد وهي تحمل الغداء.

2

... في القسم الداخلي يُنصت المشرف الليلي على العنابر أثناء فترة المذاكرة.. يهزّ رأسه تحت نافذة العنبر مع إيقاع الغنّاوة القادم من غابات الأودية: (علينا تحوز عزيز ... هذا عليش يا ليل كارهك).. ثم يفتح المشرف الباب.. يُشهر سبّابته في وجه (طاهر):

ـ يا بني آدم.. هذا وقت غناء؟! وجهك للساس.. وعلى رِجل واحدة.

يلتفت المشرف إلى الطلبة:

ـ يا سلام.. براءة.. غارقين في المذاكرة..!

3

... في رحلاتنا الربيعية.. يبسط كفّيه فوق اللهب المتراقص.. يستند بظهره إلى ساق شجرة العرعر.. يرفع وجهه إلى النجوم.. يخاطب الليل: (أَرْخَيت يا الليل جناح ... وارْخَوا اعْزاز فينا نارهم).

4

... في المعسكر.. يتمهّل ضابط الخفر فوق الدرج.. ينصت ـ وهو يتمايل ـ إلى صوت (طاهر) القادم من خلف الأسلاك الشائكة: (الله يسامحك يا ليل ... لولاك يقتلنّا همومنا).. ثم يدخل.. يضع يديه على خاصرتيه في مواجهة طاهر:

ـ أطلع للساحة وهرول يا حيوان.. توّا نخلّيك تذوق الهموم.. وخلّي الليل ينفعك.. المفروض العقوبة جماعيّة.. الحسنة تخصّ.. والسيئة تعُمّ.. لكن الليلة السيئة تخصّ..!

5

... بعد ساعة من الهرولة.. والمشي على ركبتيه فوق الحصى المدبّب.. يطلب الذهاب إلى الحمّام.

ـ معك خمس دقائق.

ـ ... ...

ـ اسرع يا حيوان.. تبي تبات في الحمّام؟!

ـ ... (صوت انسكاب الماء).

ـ دقيقة ونفتح عليك الباب.

ـ ... ...

... ترك (طاهر) نافذة مفتوحة على الليل.. وورقة كتب فيها: (سيدي الضابط.. لا يمكنني البقاء في مكان لا أستطيع الغناء فيه).

***

(2015)